من تراب الطريق (٣٥٩)

إنها جرائم سب لا جرائم رأى ! (*)

من تسطيح الأمور والمغالطة الفجة ، أن نخلط بين الرأى وهو مباح ومطلوب ، وبين الشتم والسب والقذف ، وهو جرم يعرض للشرف والكرامة والاعتبار ، وأحيانا للأعراض .. ومن يتابع الجارى الآن فى بعض الفضائيات وبعض الصحف ، سيجدها حافلة بأقذع عبارات السب والقذف والتجريح والاتهام والإهانة ، ونشر الفضائح أو تأليفها واختراعها ، والخوض فى الشرف والاعتبار والأعراض .. ولن يعثر الباحث وسط هذا الغثاء على «رأى» حقيقي يجرى الحوار أو التقارع حوله !!

على مدار عشرات السنين ، قبل وبعد ١٩٥٢ ، ضاقت الحريات أو اتسعت ـ لم يجر خلط قط بين الرأى والسب .. ظل الرأى رأيًا حتى وإن ضاق به البعض وضيقوا الخناق أو افتعلوا الأسباب لملاحقته أو عقاب أصحابه ، وظل السب سبًّا لا يجادل أو يمارى فيه العقلاء ، ويرونه غير جدير بأمةٍ لها ما لنا من الموروث الديني والثقافي والحضاري والمعرفي .. ولم يسبق فى أى عهد ، أن شهدت مصر ما نشاهده الآن من انتشار ما أسميته سلفا ثقافة الهدير ، وقد انتقلت هذه الثقافة المعيبة من مجرد الصخب وعلو الصوت والضوضاء والضجيج ، إلى قاع البذاءة

(*) المال ١٧/ ١١/ ٢٠٠٩

والسباب والشتائم والتغوّل فى الشرف والاعتبار والأعراض .. وهو تغوّل لا يبيحه قانون ، ولا ترتضيه شريعة ، حتى ولو كان موضوع السب صحيحا ؛ لأن القانون لا يبيح السب لأنه تعييب صرف وإهانة لا مبرر ولا حجة لها ولا غاية نظيفة ترتجى منها .. وهو غير الطعن فى أعمال الموظف العام أو صاحب الصفة النيابية العامة أو المكلف بخدمة عامة .. فالطعن فى الأعمال وإن صار قذفًا ـ ينصرف ولغايةٍ عامة إلى نقد الأعمال لا إلى سب وشتم وإهانة الأشخاص .. لذلك كان الطعن فى مثل هذه الأعمال مباحا متى التزم أدب وملاءمة العبارة ولم يخرج عن دائرة الموضوع إلى السب الشخصى المقصود لذاته بقصد الإهانة والتحقير !

من يتابع سيل القضايا التى وجدت طريقها إلى ساحة القضاء ، أو دفعت إليها ، سوف يرى أن غالبيتها الغالبة جرائم سب وليست قضايا رأى .. التقاذف الجارى بين بعض النقاد الرياضيين ، سب لا يبرره خلاف حقيقى فى رأى ، والعمل الطائش الأحمق الذى خاض فى عرض فنانين سب وقذف لا ينطلق من رأى ولا يستهدف غاية يقرها العقلاء وأصحاب الفكر والرأى ، والأسلوب الذى يجرى به تأييد الفرقاء والمتقارعين فى أروقة المحاكم وعلى شاشة الفضائيات ، سباب وشتائم وتفاهة لاتنضوى فى إطار المواقف الحقة أو الانتصار الموضوعى لقيم أو لمبادئ أو لقضايا !

يمكن أن تصنف فى باب الرأى ـ وسط هذا الزخم ـ نسبة لن تزيد بحال من الأحوال عن ١٪ أو ٢٪ أو أكثر قليلا من القضايا المتداولة الآن ، بيد

أن أكثر من ٩٠٪ من هذه القضايا اشتباكات شاطحة لأغراض يتشابك فيها الناس تصفيةً لحسابات أو إشفاءً لغليل أو رغبة فى الإيذاء وإثارة الفضائح أو للاستعراض وجذب الأنظار !.. ومعنى هذا أن «الأدب» صار فى محنة شديدة ، وأن الخطر الذى تتعرض له الكرامات والأعراض ، جعل يزحف على العقل الفردى والجمعى .. فالعقل يتوارى ويتراجع مع الهدير والسباب .. لا يوجد فى السب والشتم والإهانة والتحقير ما يستثير العقل أو يحرك قدراته أو ملكاته ، واعتياد هذا الهدير هو تراجع مؤكد للعقل مع تراجع الأخلاق والآداب العامة !

ومن الغريب ونحن نعانى من جرائم سب وشنم وقذف ، ولا نعانى حقيقة مما يحلو للبعض أن يطلقوا عليه جرائم رأى .. من الغريب أن نطلق الحبل على الغارب لهذا السباب وتلك الشتائم بتسطيح العقوبة والمطالبة بمزيد من تسطيحها .. مع أن انتشار الجريمة يوجب تشديد العقاب لا تسطيحه أو إلغاءه .. وقد كان من نتيجة ذلك أن انفلت الزمام وجمحت الشتائم والسباب تحت شعار الرأى وما هى برأى ، وأصيب كثير من الناس فى أمانهم وكرامتهم واعتبارهم وأعراضهم !! ترك هذا الحبل على غاربه هو دعوة لكل مضرور من سب وقذف وإهانة أن يأخذ حقه بيده .. وأخذ الحق باليد فتح ويفتح أبوابًا لن تنغلق لمزيد من هذا الوباء الذى انتشر بالهدير والإهانة والسباب والتحقير ، وتراجع العقل والوقار .. فهل هذا هو حقا ما نريده ؟!!

*****